فلسطين وأهلها

الطريق إلى الطوفان:

التجديد الفلسطينيّ في مفاهيم التحرّر الوطنيّ

الطريق إلى الطوفان: التجديد الفلسطينيّ في مفاهيم التحرّر الوطنيّ

محمد قعدان

”طوفان الأقصى سيمتدّ إلى أبعد ما يتخيّله العدوّ“ (8 تشرين الأول، 2023)

محمد البريم

اتفقّ كلُّ من المستعمَر والمستعمِر على أن ما حدثَ في الأيام الماضية، ليسَ لهُ مثيل في تاريخ الصراع والقضيّة. منذُ بدء معركة «طوفان الأقصى» في الصباح الباكر وبدء عمليّات متسارعة ومتعددة في السماءِ والبرّ والبحر، وقد أنجزت اختراقًا للحدود، واشتباكات واسعة في المقرّات وقواعد عسكريّة والشرطة، وقتل العديد من المستوطنين، وعددِ كبير جدًا من الأسرى - مع أخذ العين بالاعتبار إلى النقاش الدائر حولَ هل خطّطت المقاومة لقتلِ المستوطنين أم فقط أسرهم والسيطرة على المستوطنات والشوارع الرئيسة - وهذا باختصار شديد، لما حصل. صُدمت أطراف عديدة سواء صهيونيّة أم عربيّة وإسلاميّة، وتلا ذلك إعلان الحرب من الجهةِ الاسرائيليّة. على هذا الأساس نتساءل: كيف لنا استيعاب ما شنتهُ المقاومة الفلسطينيّة، في سياق الصراِع ضدّ الصهيونيّة الممتدّ على قرنٍ كامل ويزيد. هل بالفعلِ ما حدثَ أمس كسرَ جمودًا في المقاومة الفلسطينيّة وطرقها وإمكانيّاتها، وأيضًا في مشروعها السياسيّ وكيفيّة النضال ضدّ الاستعمار، وهل ستستمرّ الحرب إلى غزو بريّ لقطاعِ غزّة، وتتسّع الجبهات إلى شماليّ فلسطين وتدخّل حزب الله، وربّما يسبّب ذلك انخراط الولايات المتحدة بشكل مباشر؟ وما هو وقعُ ذلك على الجماهير في الشوارع سواء في الضفّةً الغربيّة، وكيف تتفاعل الخلايا المسلّحة في الضفّة الغربيّة، وكيف يؤثّر ما حدث على المنظمّات الاجراميّة واستمرار إجرامهم بحقّ الفلسطينيين تحت المواطنة الكولونيالية الإسرائيليّة؟

أسـئلةً كثيـرة أطلقتهـا «حـرب الطوفـان»، ولكـن السـؤال الأهـمّ الآن: كيـف نؤطّرهـا بوصفهِـا حربًا للتحـرّر الوطنيّ بوصفها مسـاهمة عربيّة وفلسـطينيّة في جـدوى القتـال وتراكـم الخبـرات والمعـارك والمـوارد؛ إذ إنّ الهـدف مـن وراء الطوفـان، كمـا يبـدو، التحشـيد الكامـل للشـعبِ الفلسـطينيّ، وبدايـة حـرب خاطفـة مـن أجـل التحريـر علـى الأقـل وفـق كلمـة محمّـد الضيف مـع انطـلاق المعركـة. إذ إن الشـعب الفلسـطينيّ في نضالـهِ تعـدّدت مساراتهِ: مـن حـربِ الشـوارع، حـرب الغـوار، حـرب العصابـات، الحـرب الشـعبيّة، حـرب المواقـع، حـرب الأنفـاق باعتبارهـا جـزءًا مـن تقاليـد حـروب التحـرّر الوطنـيّ العالميّـة ضدّ الاسـتعمار مـا بعـد الحـرب العالميّـة الثانيـة، منـذ إعـلان حـرب الصيـن الشـعبيّة عقـب اسـتقلالها في عـام 1949، شـيّدت بدورهـا هـذهِ المدرسـة العسـكريّة.

رسـخت التجربـة الفلسـطينيّة شـعارات واسـتراتيجيّات مقاومـة، وأصبحـت تدريجيًـا دروسًـا في التحـرّر الوطنـيّ، مثـل مـا سـجّله وديـع حـدّاد «وراء العدوّ في كلّ مـكان»، محيـلًا إلـى مطـاردةِ المسـتعمِر مـن خـلال ضـرب شـبكاتهِ الاسـتراتيجيّة الاقتصاديّـة السياسـيّة حـولَ العالـم، وتمثّـل ذلـكَ أساسًـا في عمليّـات منظّمـة لخطـفِ الطائـرات، اغتيـال السـفراء، منظمّـات اقتصاديّـة ضخمـة ممولـة للصهيونيّـة، أو مـا سـطّره باسـل الأعـرج "عـش نيصًـا وقاتـل كالبرغـوث". هـذا النمـوّ التدريجـيّ لتقاليـدٍ فلسـطينيّة مقاتلـة، مهمّـة في فهـمِ الطريـق إلـى الطوفـان. في المقابـل، مـا حـدثَ في الأمـس هـو تطـوّر نوعـيّ على حيـنِ غـرّة، كسـرَ جميـع البنـى والقوالـب التاريخيّـة المهيمنـة داخـل مدرسـة التحـرّر الوطنـيّ، لربّمـا لـم تتلـق دولـةً اسـتعماريّة إهانـة مفاجـأة، كمـا حصـلَ أمـس، مـا يجعـل الطوفـان إنجـازًا بذاتـهِ، هـو التمكّـن مـن شـنّ حـرب خاطفـة كهـذهِ، وفي هجـوم مباغـت، ونجـحَ في تحقيـق أهدافـهِ الاسـتراتيجيّة وتدميـر عقائـد الأمـن القومـيّ الاسـرائيليّ التاريخيّـة، وعلى رأسـها اختـراق الحـدود، وفتـح بـاب عـودة اللاجئيـن، والقتـال في داخـلِ المسـتوطنة.

في نهايـةِ حـرب التطهيـر العرقـيّ التي شـنّتها مجموعـات منظّمة عسـكريّة

صهيونيّـة على الشـعب الفلسـطينيّ في عـام 1949، ووُقعـت اتفاقيّـات «وقف إطلاق النـار» مـع الجانـب العربـيّ المتمثّـلة في دول الطـوق، بـدأت ملامـح الأسـس الصهيونيّـة الأمنيّـة في التشـكّل، وقـد ارتبطـت آنـذاك في بنـاء الحكـم العسـكريّ إزاء الباقيـن مـن الشـعب الفلسـطينيّ في الأراضـي المحتلّـة، هـي: 1- حظـر عـودة اللاجئيـن إلـى قراهـم وأراضيهـم، 2- مصـادرة الأراضـي وبـدء في قيـام منظومـة قانونيّـة تؤسـس إنتـاج السـلب والنهـب بشـكلٍ مسـتدام وعيـده، مـن خـلال جسـم «حـارس أمـلاك الغائبيـن» الـذي ولـد عبـر الحـرب، حتـى الإقـرار النهائـيّ في عـام 1953، وكمـا اعتبـر القانـون حفاظًـا على أمـلاك اللاجئيـن خـارج الحـدود، وقـد صـكّ القانـون مصطلحًـا متـداولًا «الحاضـرون الغائبـون» وهُـم اللاجئـون في داخـل الأراضـي المحتلـة، وقـدّر 50 ألفًـا مـن الفلسـطينيين وهم ثُلـث الباقيـن، 3- تحصين الحـدود لمنعِ أيّـة حـالات تسـلّل، 4 - بنـاء المسـتوطنات الحدوديّـة لتسـاهم في تثبيـتَ الدولـة الاسـتيطانيّة وعمليّـة صناعـة حدودهـا إزاء الفلسـطينيّ. جميعهـا تنحـو إلـى عمليّـة شـاملة في صناعـةِ الحـدّ والحفـاظ على «مكتسـبات» النكبـة.

في المقابـل، لـم يسـتكن الفلسـطينيّ إلـى الواقـع الجديـد، بـل اسـتمرّ في العمـلِ المقـاوم مـن خـلال أعمـال التهريـب المتواصلـة عبـر الحـدود، حتـى أصبحـت شـكل أساسـيّ مـن الحيـاة اليوميّـة. أتذكّـر في مقابلـةٍ مـع الجـد عبـد القـادر أبـو مـخ مـن باقـة الغربيّـة، أنّ ظاهـرة التهريـب نشـأت بشـكل أساسـيّ لتلبيـةِ الحاجـات اليوميّـة، إذ إن الحكـم العسـكريّ قـد عيّـن مقـدارًا ضئيـلًا مـن الطعـام والملبـس لـكلّ عائلـة، بحيـثُ أنّ هـذا مـا يبقيهـا على قيـدِ الحيـاة فقـط، موضحًـا أن الاجـراءات البيو-سياسـية التـي نشـاهدها إزاء قطـاع غـزّة في تحديـد السـعرات الحراريّـة اللازمـة لـكلّ مواطـن، وعلى هـذا الأسـاس ادخـال المـؤن والمـوارد، هكـذا تعامـل إسـرائيل مـع «مواطنيهـا» العـرب، وبالتالـي جـاء فعـل التهريـب اسـتمرارًا للعلاقـات الفلسـطينيّة مـا قبـل الحـدود، وأيضًـا بهـدفِ تلبيـة الحاجـات الضروريّـة، مثـل ورق لفّ السـجائر، شـيفرات حلاقـة، عمـلات نقديّـة، مـؤن وغـذاء، اللحـوم (للاسـتزادة دراسـتي حـول التهريـب وصناعـة الحـدّ).

إضافـةً إلـى ذلـك العمـل الفدائـيّ الـذي اختـرقَ الحـدود بشـكل متواصـل، وتحـوّل لفعـلٍ بنيـويّ عبـر الضفّـة الغربيّـة قطـاع غـزّة بشـكلٍ أساسـيّ: العمليّـات المتواصـل ضـدّ المسـتوطنات، حـرق زرعهـم، تخريـب ماكيناتهـم وممتلكاتهـم، اشـتباكات مسـتمرّة مـع شـرطة الحـدود المنبثقـة عـن الجيش، جميعهـا أصبحـت فعـلاً شـرعيًا ضمـن إطـارًا مقاومًـا يطمـح لاسـتعادة الأرض والعـودة إلـى بيوتهـم.

حتـى العقـد الثانـي لنشـوء الدولـة، اسـتمرّت المقاومـة على الحـدود وتحـدّي سـيادة الدولـة الكولونياليّـة الناشـئة، ولـم يتوقّـف بتاتًـا، بإسـنادٍ مشـروط ومتعـرّج مـن بعـض الـدولِ العربيّـة. كمـا أننـا حينمـا نقـرأ مذكّـرات موشـيه ديّـان خـلال «حملـة سـيناء» والعـدوان الثلاثـيّ على مصـر، نشـتقّ مـن خـلال سرديّته على أن المهرّبيـن، والفدائييـن، والمتسـللين هـم عوامـل رئيسـة للحـرب ودوافـع الإسـرائيليين في تشـكيل تحالـف مـع البريطانييـن والفرنسـيين، وهـذا مـا يهمّنـا في هـذا السـياق على الأقـل، الحـدود بوصفهـا هاجسًـا وبنيـةً رئيسـة في تشـكيل الوعـي الصهيونـيّ. إذ أنـه لـم يعـد فقـط صناعـة فيزيائيّـة حقيقيّـة، بـل أيضًـا مكونـا بنيويًـا للتفكيـر الثقافيّ السياسـيّ في الدولـة الصهيونيّـة (للاسـتزادة دراسـة إسـماعيل ناشـف طـرق عمـل)، الـذي يتأتـى منـهُ محاربـة تامّـة واقتـلاع الفعـل الفلسـطينيّ المهـدّد للتشـكيلات الحدوديّـة الصهيونيّـة.

الطوفـان في هـذا الصـدد يؤسـس فكريًـا إلـى مواجهـةِ الحـدّ، كونـهُ يعبّـر منهجيًـا عـن خيـار وإمكانيّـات أخرى للمقاومـة. انطلاقًـا من مقولـة أن العنوان والشـعار ليسـت كلمـات عابـرة، بـل مقدمـةً للفعـل والممارسـة. الطوفـان في هـذا السـياق، زاخر في المعاني غنيّ في الممارسـات والتكتيكات المسـتجدّة، يؤسـس لممارسـات قتاليـة مسـتجدّة، كمـا أنـه يطـوّر فهمًـا جديـدًا للصـراع؛ إذ تتحـوّل قضيّـة تصفيـة الاسـتعمار مـن قضيّـة ثـورة أمـام ظالـم أو مسـتبدّ أو طبقـة برجوازيّـة، إلـى طوفـانٍ يُغـرق الجميـع، ويُطهّـر الأرض، وكلّ مـن يريـد البقـاء، يجـب أن يتمسّـك في قيـم انسـانيّة أكثـر جذريّـة وأكثـر متانـةً، مثـل العدالـة والحريّـة، وهكـذا تتحـوّل هـذهِ القيـم إلـى «سـفينة نـوح» لهـذا الطوفـان. هـو الانقـلاب المفاهيمـيّ علـى تقاليـد «الثـورة الفلسـطينيّة» التي

انطلقت في منتصف القرن الماضي.

خلال نقاشات فكريّة ثوريّة ماركسيّة في تلكَ الفترة، برزَ إلياس مرقص ناقدًا مفهوم وشعار «الثورة الفلسطينيّة» باعتبارهِ ناقصًا ولا يعبّر عن الحالةِ الفلسطينيّة، ولا يستطيع فعليًا مجابهة الصهيونيّة وتعمقها واتساع هيمنتها. إذ إنه يرى أن تطوّر مصطلح «الثورة»، بدءًا من الثورة الفرنسيّة ضدّ الملكيّة والاستبداد والاقطاعيّة، أو الثورة الروسيّة ضدّ القيصر والإقطاعيين، لا يستطيع التعبير عن الحالةِ الفلسطينيّة الخاصّة، التي تتشابك فيها عوامل عدّة من الظلم، والاستبداد، والاستيطان، والحكم العسكريّ، والاستغلال الطبقيّ، وبالتالي هذا المصطلح غير قادر على التماهي مع الفلسطينيين وتجربتهم تحت هذهِ المنظومات الاستعماريّة المتشابكة (كتاب "نقد الفكر المقاوم").

إذًا علينا أن ندرك أن الطوفان هو نتاج وعي المحاصرين، باعتبارهم المجموعة الأكثر اضطهادًا، ونشتقّ ذلك من مفهوم لينين حولَ الحلقة الأضعف، وقدرة المجموعات في تلك الجغرافيا على إدراك ما يتوجّب فعلهُ كي نتمكّن من تصفية الاستعمار. كما أن الطوفان في معناهُ داخل نسق الثقافة العربيّة الاسلاميّة، هو العذاب الإلهيّ للبشريّة الضائعة في آثامها ووجب تطهيرها، ليسَ بهدف الابادة، بل على العكس من أجل الحياة.